تشكل الهوية في الرواية العربية المعاصرة /التجليات والأبعاد

الباحث محمد جعيدي – جامعة الدكتور يحي فارس- المدية –
الجزائر الباحث مصطفى ولاش – جامعة لونيسي علي – البليدة – الجزائر

مقدمة

فرضت المناهج النقدية الحديثة سلطتها على النص الأدبي المعاصر -على وجه الخصوص- من عدة جوانب، وأحاطت بالرواية العربية محاولة سبر أغوارها وكشف مضمراتها مستعينة في ذلك بحقول معرفية متعددة (التاريخ، الفلسفة، علم النفس، الأنثروبولوجيا...) ومن بين المسائل الشائكة التي حظيت بالتحليل الممنهج، والمساءلة قضية الهوية وتشكلاتها، ومما جعل هذه الأخيرة تلقى رواجا في الساحة النقدية العربية وجود الكثير من النماذج الروائية خاصة التي طرحت الهوية كمادة تفرض نفسها سواء عن قصدية من قبل الكاتب، أو أتت عرضا عن طريق مجموعة من الأنساق المبثوثة قسرا بتأثير سلطة المجتمع وما تقره الأعراف أو السلطة الدينية، وفي كثير من الأحيان نجد سلطة القمع التي تمارسها الدولة بمفهومها الواسع،توجه الكتابة ومقاصدها نحو هوية الشخصيات المبثوثة في النصوص الروائية بصفة عامة أو توجيه الرؤية العامة للهوية بشكل مكثف نحو البطل الورقي المصنوع لتأدية دور محدد ومسطر من قبل الروائي لخدمة فكرة أو تجوه معين.

ويتجلى ذلك عند التعامل مع النص استنادا على القراءة الثقافية المبنية على التأويل الذي يتجاوز القراءة الوصفية التي كانت سائدة بفعل اعتماد النقاد على المناهج السياقية، ومن هذه النماذج والتي ستكون محل تطبيقنا رواية "خرافة الرجل القوي" التي صدرت سنة 2016 للروائي الجزائري بومدين بلكبير.

التي دارت أحداثها في عدة بلدان من الجزائر والمغرب إلى بلجيكا و رومانيا وفرنسا، وبنيت تفاصيلها حول "**جواد** "الشاب الجزائري الذي يبحث عن نفسه من خلال طرح تساؤلات هووية على كل من اشتم فيه رائحة الأصل، أو حتى على نفسه، مبرزا أنه يعيش في غربة ثنائية الأبعاد، بعدها الأول يتجلى في إقامته بفرنسا، وبعدها الثاني عدم معرفته لأفراد أسرته الحقيقية باستثناء الأب الذي بث فيه ذلك الحنين والشعور بالانتماء إلى أناس تكتسيه رغبة جامحة في الرجوع إليهم وممارسة الحياة العادية إلى جانبهم، إشباعا لرغبات نفسية صنعتها تلك الغربة، تسارعت الأحداث لترمي جواد بين أحضان زوجة جمعت بين الأصول الرومانيةالتي تشبه إلى حد بعيد الوسط الذي نشأ

فيه وبين الهوية الجزائرية التي يبحث عنها، وباعتبار الدولة التي كان يعيش فيها تتميز بتعدد الجنسيات من مهاجرين عرب ومغاربة وحتى من إفريقيافقد تمكن من التعرف على "**عدنان عبد اللاوي**" الشاب المغربي الذي علق عليه آمالا كبيرة في تمكينه من الوصول إلى ضالته المتمثلة في " **سمير زهري**" الشاب الذي يحمل نفس لقب العائلة معه (**زهري**) والذي وجد مقتولا في شوارع فرنسا وتم تبرير الجريمة باتهامه بترويج الكوكايين، كانت تلك الحادثة القطرة التي أفاضت كأس جواد وسارت به نحو قسنطينة مسقط رأسه هو ومسقط رأس أم زوجته "**نور**".

أهم حدث بعد عودة جواد إلى الجزائر التقاؤه بعمه الذي وضع أمامه شجرة العائلة، هنا اكتشف جواد أن الشخص الذي وجد مقتولا في فرنسا هو أخوه من أبيه بعد بحث طويل قاده إلى مدينة عنابة حيث تقطن عمته.

تشكل هوية البطل من خلال صراع الأنا والآخر

سعت الدول الإمبريالية لفرض سيطرتها على العالم عسكريا واقتصاديا وحتى فكريا وأدبيا، الأمر الذي جعلها تعيش على وهم المركزية والتعالي على ما عداها من الأقطار والشعوب وحينها أصبح الفرد الأوروبي يرفل تحت ضلال المثالية، وعلى النقيض من ذلك تسربت إلى خوالج الشعوب المستضعفة التي يعاني أفرادها من ويلات الفقر والجوع والحرمان والشعور بالغربة الداخلية التي عاشها والد **جواد** بعد مغادرته لوطنه الجزائر مكرها "عاش أبي في برد الغربة محروما من دفء وطنه، ورافقه هذا الشعور إلى حفرة قبره الرطبة. دفع أبي ثمن خيار لم يكن له يد فيه، دفع ثمنا باهضا كلفه الابتعاد عن الأرض التي لم يحب أرضا غيرها "[1] تجلت في هذه الحادثة ثنائية الأنا والآخر المتمثلة في والد جواد والثوار الذين دفعوا به إلى الهجرة من خلال اعتدائهم على والدته لإشباع نزواتهم، هذه الحادثة ساهمت في تشكل هوية الوالد حيث أصبح يحمل حقدا على الثورة ورموزها، كل هذا تجلى على لسان **جواد** " لما عرف أبي فيما بعد هوية هؤلاء الرجال، زاد حقده أكثر. وأصبح ينفر ويشتد حنقه من كل شيء يرمز للثورة والكفاح ضد المستعمر وكان يمتعض ويهيج ساخطا كلما سمع كلمة ثوار أحرار ومجاهدين أطهار"[2].

---

[1] بومدين بلكبير، خرافة الرجل القوي، منشورات ضفاف، بيروت، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2016، ص16.

[2]-المرجع نفسه، ص17.

يكرس هذا المقطع فكرة الهيمنة التي يفرضها القوي على الضعيف، وهنا تتجلى لنا ثنائية غير محددة الأطراف في غالب الأحيان تتمثل في القوي والضعيف، وبتمثيلنا لهذه الثنائية نجد أن الأنا يتجلى في صورة والد جواد عندما تم الاعتداء على أمه وهو صغير، بينما الآخر فيتمثل في الثوار بامتلاكهم لقوة السلاح، والهيمنة، والقبول، إذ أنه لا يمكن لوالد جواد أن يتهم الثوار في بلدة تمجدهم وترى فيه الأمل الوحيد للتخلص من المستعمر إذ أن " إرادة الهيمنة مسوغها هو الرغبة والتفوق وضرورة أن يكون هنالك غالب ومغلوب أو متفوق ومتخلف"[3] ومنه فإن تعالي الآخر ونرجسيته الذاتية جعلت الأنا يشعر بالحرمان ما دفعه إلى البحث عن ذاته ومعالمه نتيجة تفكك هويته التي يزعم الآخر أنه يتقاسمها معه، ما جعله يتجه نحو الذوبان داخل هوية أخرى تحقق له وجوده وكيانه، وتخرجه من الجماعة التي نبذته وجعلته يشعر بالظلم والقهر.

وهذا من المسوغات التي تكرس مبدأ نشوء ثنائية الأنا والآخر وتلك الرغبة الجامحة التي تخرج الإنسان عن إنسانيته، وتجعل من يمتلك أي نوع من السلطة يستعملها ضد كل مستضعف يعترض طريقه، هنا نجد أن تطور العملية السردية في رواية "**خرافة الرجل القوي**" تضعنا أمام تطور لثنائية والد جواد مع الثوار إلى ثنائية أكثر بروزا وهي أنا الشعب الجزائري وآخر السلطة الحاكمة بكل أذرعها، ويظهر هذا في التساؤلات التي قام العم بطرحها أثناء حواره مع ابن أخيه " ألهذا الحد تضع الشعوب رقابها تحت سيف جلاديها مستسلمة مستضعفة ؟.

ألهذا الحد يدفع الأحرار ثمن تخاذل الجميع؟.

ألهذا الحد تقع الشعوب في فخ خرافة تلك الشخصيات الخرافية، التي تكبس على أنفاسهم وتقبض على أرواحهم وأرزاقهم؟."[4]

هنا ساهم العم في تشكيل هوية جديدة لدى **جواد** تكون موازية للهوية التي ترسبت في الذاكرة الجماعية للجزائريين، والتي ساهم في صنعها أولئك الذين سرقوا الثورة التحريرية ونصبوا أنفسهم حكاما على الشعب المنتشي بطرده للمستعمر حديثا، فإذا به يجد نفسه في مواجهة أناس من أبناء جلدته، تسرق ثرواته باسم الثورة والهوية

[3]-محمد شوقي الزين، الذات والآخر: تأملات معاصرة في العقل والسياسة والواقع، منشورات ضفاف، بيروت، ومنشورات الاختلاف، الجزائر، ودار الأمان، الرباط، ط1، 2012، ص9.

[4]- بومدين بلكبير، خرافة الرجل القوي، مرجع سابق، ص75.

المشتركة، لأن الهوية في الأخير شعور بالتحرر والاحساس بمعالم الأنا، على عكس ما تدعيه السلطة التي لا تدخر جهدا في توجيه هذه الهويات بما يحقق مصالحها ويجعلها على سدة الحكم أطول فترة ممكنة. فبناء الهوية يعتمد على التحرر من الهيمنة الخارجية والداخلية[5].

بناء على ما سبق فإن تشكل الهوية يكون من خلال تعرية الآخر، وفضح مخططاته، وتقويض مقولاته التي يختفي وراءها من أجل توجيه الهوية الجماعية بما يتوافق مع توجهاته السلطوية، تتجلى هذه الفكرة لدى البطل "**جواد**" عندما التقى بعمه لأول مرة بعدما نشأ في دول أوروبية وترعرع بفكر غربي وهوية متأرجحة بين الغرب الذي احتضنه، وبين الشرق الذي أرغم والده على الهجرة نحو فرنسا، زادها العم توهانا عندما سرد له بعض الحكايات التي تتعلق بحياة الناس في قسنطينة بالخصوص والجزائر على وجه العموم. قامت الرواية بتسليط الضوء على الحكام في العالم الثالث، الذي يصنع لنفسه قوانين تجعل من فئة أقلية ساحقة، ومن الشعب أغلبية مسحوقة ، حيث تتوزع المناصب في السلطة وفق قوانين جائرة لا تخضع لمعيار الكفاءة، ولا لمبدأ الرجل المناسب في المكان المناسب، وساهم في تمكين هذه الأفكار كون أغلبية الشعب ترضخ لإملاءات هذه الفئة وما تقرره، بفعل أحداث وظروف معينة، هنا مخيلة جواد تقوم بفعل تناصي بين هذه الأحداث وبين الخبر الذي قرأه في إحدى الجرائد، عن حاكم يدير شؤون بلده عن بعد " لماذا أتذكر، الآن ما قرأته قبل سنوات على صفحات صحيفة لوموند؟ خبر ملك إفريقي يقود أكثر من مليونين من البشر من بلد أوروبي عبر السكايب. وكيف يصل الوهم بهؤلاء أن يؤمنوا بخرافة هذا الملك؟ الذي هو في حقيقة الأمر مجرد مصلح ميكانيكي للسيارات مقيم في مدينة ألمانية لا أتذكر اسمها، هؤلاء الأقوام كأنهم مهيؤون جينيا ومفطورون على الإيمان بخرافة الرجل القوي !!".[6]

---

[5]-محمد بن ساعو، الهوية والانتماء القومي بين التاريخ والحداثة، من خلال كتاب " نحن والتاريخ" لقسنطين رزيق، في كتابالسؤال عن الهوية: في التأسيس والنقد والمستقبل، إشراف وتنسيق الأستاذ بشير ربوح، منشورات ضفاف، بيروت، ودار كلمة، تونس، ودار الأمان، الرباط، ومنشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2016 ص222.

[6]-بومدين بلكبير، خرافة الرجل الفوي، مرجع سابق، ص 75-76.

كرس الآخر بهيمنته الاستلاب الفكري والثقافي والنفسي، ما جعل أفراد العالم الثالث يعيشون الحرمان بكل أنواعه ، الأمر الذي جعلهم يبحثون عن أنفسهم بطرق مختلفة كالهجرة غير الشرعية هروبا من قهر الظروف ومرارة العيش في وطنهم الأم وهذا على اختلاف مستوياتهم الفكرية والثقافية في المجتمع نفسه هذا ما أقره إسماعيل مهنانة في قوله "ويعيش الفرد العربي تمزقات نفسية واجتماعية وسياسية كارثية، فقط بسبب الميراث الهووي؛ ولم يقدم له المثقف العربي أي مخرج لأنه هو الآخر واقع في شراكه، أكثر من الآخرين" [7]

لذلك فإن النظام الحاكم يستغل النفسية المدمرة للفرد العربي والإفريقي التي صنعها عن قصد في ممارسة كل أنواع النهب و الظلم، وكذا جعلها مقننة ومحاطة بهالة من القداسة سواء كانت تحت غطاء ديني أو اجتماعي أو غير ذلك من المبررات المدسوسة في الفكر الجماعي للفرد المضطهد على اختلاف جنسيته، وفي حالات عديدة يجد هؤلاء المضطهدون هوويا أنفسهم في حاجة ماسة إلى التمرد على هذه الهويات المرسومة مسبقا، والتي لم تحقق لهم ذواتهم ولم تشبع رغباتهم، مستغلين حينها دوافع معينة غذت هذا التمرد.

وإذا كانت السلطة من منظور ميشيل فوكو هي علاقات مترابطة من القوى مهمتها تنظيم علاقات جماعة معينة وتشكل منظومة هذه القوى المتشابكة مشكلة بذلك جملة من الهياكل المنظمة في شكل مؤسسات وأجهزة تخدم الدولة [8] . فقد وجدنا أن السلطة من منظور الرواية تعتمد سياستها على أساليب قمعية معدة سلفا وفق خطط محكمة، حيث تبدأ صناعة شخصية الفرد المقموع منذ صباه، وذلك من خلال البرامج التعليمية، وطريقة التكوين التي تفرضها على هذا الفرد، موهمة إياه أنها تريد مصلحته، وأنها تصنع منه مواطنا صالحا بمواصفات عربية وإسلامية. وهذا ما حدث مع الدول العربية غداة استقلالها والتي سطرت برامج تعليمية ذات بعد قومي، متجاهلة

[7]-إسماعيل مهنانة، العرب ومسألة الاختلاف: مآزق الهوية والأصل والنسيان، منشورات ضفاف، بيروت، ودار الأمان، الرباط، ومنشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2014، ص104.

[8]- ميشيل فوكو، جينالوجيا المعرفة، ترجمة: أحمد السلطاني وعبد السلام بن عبد العالي، دار توبقال للنشر، المغرب، ط2، 2008، ص105.

الخصوصيات والأقليات التي تعيش داخل هذه الدول، ما جعلها تدخل في متاهات وأزمات فكرية جراء محاولة توجيهها للهوية مسبقا [9]

الأمر الذي جعل الفرد العربي عموما يعيش غربة هووية خانقة، لذا تجده في غالب الأحيان تعتريه عقدة النقص التي يبحث عن تعويضها بممارسات تصنف على أنها خروج على الدولة ويتم سجنه جراءها، ويحاول آخرون الهروب من الواقع الذي يحتم عليهم الرضوخ لما لا طاقة لهم به، عن طريق محاولة الهجرة غير الشرعية التي تبوء غالبا بالفشل وينتهي بهم المآل طعاما للقرش في كثير من الأحيان، ومن ساعفهم الحظ ووصلوا إلى الضفة الأخرى التي يرون فيها الخلاص من واقعهم الأليم الذي فروا منه، سيواجهون واقعا أكثر ظلما وقهرا من الذي تركوه وراءهم وقد صورت الرواية مشهدا من هذا الحقد الدفين الذي يكنه الغربي للشرقي على لسان **مارسيل** زميل جواد في العمل حين خاطبه قائلا:" ماذا يأتينا من العرب غير العنف والاجرام!؟ فهؤلاء المهاجرون نمنحهم الحرية والحقوق التي يحلمون بها في بلدانهم البائسة، ثم يكافؤوننا بالتفجيرات الإرهابية أو بالانحراف والإجرام"[10] .

هنا برزت لنا ثنائية الأنا والآخر أكثر وضوحا ويتم تمثيلها من خلال الرواية في صورة الصراع بين الشرق (**جواد**) والغرب (**مارسيل**) الذي في أصله هو صراع أزلي بين هويتين متقابلتين بحيث يسعى كل طرف إلى إثبات هويته وتثبيت أركانها على حساب هوية الآخر وهو ما يصنع صراعا متواصلا، وإن كان في ظاهره يتغذى من عوامل معينة، إلا أن الأساس هو صراع الهوية التي وسعت الشرخ بين الطرفين، فالكل يريد إثبات ذاته والانتصار لهويته على حساب الآخر، فالهوية مسألة غير قابلة للتجزئة وقد تبنى عليها كيانات الشعوب والأمم. لذا فإن كل أمة تريد أن تفرض هويتها على الآخرين بجعلها طاغية على باقي الهويات، وإن عجزت عن تحقيق هذا الهدف فلا أقل من أن تجعل هويتها تقف ندا للند في مقابل الهوية الأخرى[11].

---

[9]- ينظر، إسماعيل مهنانة، العرب ومسألة الاختلاف: مآزق الهوية والأصل والنسيان ، مرجع السابق، ص 111.

[10]-بومدين بلكبير، خرافة الرجل القوي، مرجع سابق، ص 26.

[11]- ينظر، علي عبود المحمداوي، خطاب الهويات الحضارية من الصدام إلى التسامح: دراسة مقارنة بين المنجز الغربي والمنجز الإسلامي، منشورات ضفاف، بيروت، ودار الأمان، الرباط، ومنشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2019، ص 66-67.

يحيلنا كل هذا إلى حقيقة الصراع بين الذات والآخر، بين الشرق والغرب ، بين المستعمَر والمستعمِر، وإن كان في ظاهره صراع حول الهيمنة ونهب خيرات البلدان المستضعفة، إلا أن حقيقة الصراع هي مسألة الهوية ومكوناتها من لغة ودين ومعتقد، فقد حاول الغربي بسط هيمنته على الشرق وطمس هويته عن طريق زرع نظرياته الفكرية والفلسفية وجعل الفرد العربي ينبهر بتلك الصورة التي رسمها الغربي لنفسه ولغيره، والتي بثها المستشرقون في خطاباتهم حول الشرق نفسه" فالشرقي يدخل رغما عنه في ترتيبية استشراقية ذات طابع ثنائي(الشرقي مخاتل والغربي فاضل، الشرقي كسول، والغربي نشيط، الشرقي شبقي والغربي معتدل...) الغاية منها بناء عالم منقسم وفق تقاطب مزدوج يرمي الشرقي في حقل دلالي احتقاري ولا معقول، والغربي في حقل دلالي يصنع التفوق والتفاضلية"[12].

نجد أن وحيد بن بوعزيز يحذر من طبيعة الخطاب الاستشراقي الذي يهدف أساسا إلى خلق كتلتين متصارعتين وتغليب إحداهما على الأخر بانتصار هذا الخطاب للغرب من خلال الصورة النمطية التي يرسمها للشرق والتي ترمي دائما إلى بث الشك والخوف وزرع فكرة الدونية تمهيدا لسلبه هويته وأصله وكل ثوابته، وجعله يذوب مرغما في هوية الآخر.

اشترك كل من الغرب (فرنسا، بلجيكا...) والشرق (الجزائر، المغرب، تونس...) في الممارسات البشعة والأخلاق السيئة ، واستغلال السلطة لممارسة الظلم بمختلف مظاهره، لكن البطل (**جواد**) برجوعه إلى الجزائر رغم كل ما حصل له ولعائلته من قبل الثوار كأنه يخبرنا بأن العربي على بشاعته يظل أرحم من الغربي الذي وفي أحسن أحواله سيبقى ينظر إليك تلك النظرة الدونية الملونة بالحقد والعنصرية لأن دوافع الظلم تختلف بين الطرفين (الغربي والشرقي) فالشرقي عموما يلجأ إلى الظلم والتسلط لأسباب اجتماعية ساهمت في تشكل تلك الترسبات التي تخرج في صورة أخلاق بذيئة وسلوكيات عدوانية، فإن الغربي عموما تلك هي أخلاقه وما يدعو إليه مجتمعه ودينه المحرف، ومن هنا نجد أن الروائي انتصر للهوية العربية على حساب الهوية الغربية، وهذا ما نجده مجسدا في الرواية من خلال تبرير الأفعال على أنها نابعة من ظروف معينة

[12]-وحيد بن بوعزيز، جدل الثقافة: مقالات في الآخرية والكولونيالية والديكولونيالية، دار ميم للنشر، الجزائر، ط1، 2018، ص19.

فرضها الواقع " الناس هنا فضوليون جدا، لا يصدقون أن يروا مظهرا أو سلوكا معينا في الشارع، حتى يتجمهروا للتفرج. لايهمهم التطفل على الآخرين بقدر ما يهمهم فقط الاستمتاع بالفرجة. فتطفلهم وفضولهم نابعان من الفقدان والحرمان الذي عاشوه"[13]، وهذا يعد مبررا لعديد من التصرفات المنبوذة لأن ما عاشه الجزائري بداية من فترة الاستعمار إلى فترة ما بعد التحرر ليس بالأمر الهين على الإطلاق، على عكس المواطن الغربي الذي يعيش في مجتمعات تحقق له رغباته وتسمح له بالعيش في مساحة من الحرية، تجعل أفعاله العنصرية غير مبررة .

جسدت لنا هذه الرواية تشكل الهوية وتجلياتها من خلال البطل **(جواد)**وعلاقته بالشخصيات التي عايشها في فرنسا والتي وجدها في الجزائر حين عاد باحثا عن أصول الشاب **(سمير زهري)** الذي يحمل معه نفس اللقب والذي وجد مقتولا في فرنسا، ليصنع لنا في هذه الرحلة مجموعة من الثنائيات المتصارعة هوويا والتي قمنا بتمثيلها فيما سبق، وقد أحاطت رواية (خرافة الرجل القوي) بمكونات الهوية وبعض من أبعادها التي سنحاول الكشف عنها في القادم من البحث .

القومية وصراع الهوية

ترتبط الشعوب فيما بينها بعوامل اللغة والدين والعادات والمصير المشترك، وهذا ما يجعل منها لحُمة واحدة، وقد تساهم هذه العوامل في الترابط بين شعوب دون غيرها، ونجد أن هذه العوامل ذاتها هي من تحدد انتماءاتها، وتجعل العالم مقسما إلى كيانات و إيديولوجيات متصارعة، يأخذنا **بومدين بلكبير** إلى هذه العوالم من خلال السفر بين البلدان، وتوظيف شخصيات تبرز اختلاف بعض الهويات وتلاحم بعضها الآخر ، من هنا يبرز تساؤل مفاده: لماذا نجد أن بعض الهويات تتلاحم وبعضها الآخر يتصارع ؟، وماهي العوامل التي غذت هذا الصراع؟ .

ويتمظهر هذا الصراع الذي يتجسد من خلال أحداث الرواية، وشخصياتها المتداخلة فيما بينها ليحيلنا

لما يسمى بتعدد الأصوات داخل الديمومة السردية حيث يرى **باختين** أن التعدد اللساني في الرواية والمتمثل في الشخصيات التي تتحاور داخلها يجعل لكل منها بعدا إيديولوجيا

[13]- بومدين بلكبير، خرافة الرجل القوي، مرجع سابق، ص53.

خاصا بصاحبه، أو أن تحمل جماعة من المتحاورين بعدا إيديولوجيا واحدا .[14]وبالعودة إلى الرواية نجد بأن جواد شاب من عائلة جزائرية يقيم بفرنسا، وهذا هو المحرك الرئيسي للأحداث الموجودة في الرواية، إذ أن إقامة الفرد في بلد غير بلده تجعله يلتقي بأشخاص يختلفون معه في الفكر والهوية، ما يدفعه دائما إلى محاولة إثبات نفسه، وذلك بعدم الانسلاخ من أصله ومعتقداته ودينه ولغته، الأمر الذي جعل بطل الرواية يتشبث بكل من يشتم فيه رائحة الانتماء، ويحاول التقرب منه والتودد إليه، بحيث كان جواد يبحث عن ربط علاقات مع المهاجرين المغاربة ويتحسس أخبارهم، ويذهب إلى المقهى الذي يجلسون فيه ليسمع أحاديثهم فقد سمع حديثا دار بين اثنين منهم :

" كيف الحال يا وليد البلاد ؟

-واش يا عدنان المروكي مدة ما شفناك هنا، هذي غيبة كبيرة يا راجل ؟"[15]

كان هذا الحوار القصير كافيا بالنسبة لـ**جواد** لإذكاء الحنين إلى الوطن وإلى كل ما هو عربي، لأنه جعل من قوميته العربية متنفسا يخرجه من حالة التيه التي يعيشها، فهو دائم البحث عن هوية يتمسك بها، باعتبار أن هويته قيد التشكل " فأوقات الأزمة أو التحول في تاريخ أية أمة أو أي فرد في غالب الأحيان فترات البناء الكثيف للهوية، أو إعادة صنعها"[16].

هذا مرده إلى أن الانسان يكون بحاجة للاستناد على هوية رصينة عندما يواجه أزمات ومشاكل، خاصة إذا كان يعيش في غربة عن وطنه، باعتبار الوطن المهد الذي تتبلور فيه مقومات الهوية، لذا فإن الانسان عموما مفطور على الميل إلى بني جلدته ومن يشكل معه أمة واحدة، وبحكم أن البعد المغاربي الذي يجمع أبناء هذه الدول يجعلهم يشكلون قومية مغاربية مضافة إلى البعد العربي الذي تنبثق منه الهوية المغاربية، باعتبار أن الهوية يتداخل مفهومها مع القومية وفي اتحادهما تتشكل الهوية القطرية على حد تعبير **سعيدة بن بوزة** التي ترى بأنه" بين الهوية الوطنية والهوية القومية تبرز هوية

---

[14]- ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ترجمة محمد برادة، دار الفكر للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1987، ص 101.

[15]-بومدين بلكبير، خرافة الرجل القوي، مرجع سابق، ص32-33.

[16]- نهال مهيدات، الآخر في الرواية النسوية العربية،: في خطاب المرأة والجسد والثقافة، دار عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع ، مصر، دار جدارا للكتاب العالمي للنشر والتوزيع، القدس، ط1، 2008، ص11.

أخرى، وهي ما يمكن أن نطلق عليه (الهوية القطرية)كالهوية القطرية المغاربية ونظيرتها المشرقية" [17] هذا مفاده أن الهوية يمكن أن تتجزأ في كثير من الأحيان على الأقطار والأقاليم الجغرافية، لكنها كمفهوم عام يمكن اعتبار هذه التجزأة بمثابة توزيعها على الأقطار التي تحمل نفس المقومات لتتبلور على شكل هوية جماعية تذوب داخلها الحدود والفواصل الجغرافية.

تجسد الرواية التلاحم الموجود في ديار الغربة بين الجنسيات المغاربية بشكل جلي، خاصة عندما يلتقي هؤلاء الأشخاص في المكان الذي اعتادوا اللقاء فيه، حيث نجد أنهم صنعوا لأنفسهم مطاعم تقدم الأكل التقليدي الخاص بهم ومقاه يجتمعون فيها ويتجاذبون أطراف الحديث، هذا ما جسده لقاء **جواد** الجزائري مع **عدنان عبداللاوي** المغربي في الحوار الذي دار بينهما :" - خويا من الجزائر أو من تونس؟

- من الجزائر.
- نحب الجزائر، وعندي الكثير من الأصدقاء الجزائريين في حي بارباس الباريسي ."[18]

بعد ترتيب هذا اللقاء من قبل الروائي أحالنا من دون أن نشعر إلى وجود رابط يكاد يكون خفيا في هذه الرواية، ذلك الرابط يسمح للقارئ بتلمس الاشتراك العجيب الذي جمع بين بطل الرواية والشخص الذي يعتقد أنه سيوصله إلى مبتغاه (التعرف على هوية الجثة التي تحمل معه نفس اللقب) مع العلم أن الدافع الذي جعل جواد يبحث عن هوية الجثة هو شعوره أنه سيكون من بلده أو حتى من عائلته، وعدم ذهابه إلى السلطات الفرنسية ليستفسر حول الجثة - و هي أقدر على إيصاله إلى هدفه – مع تفضيله لطلب يد المساعدة من المغربي دليل على تشبثه بهويته القومية، وقد لمسنا أن كل لقاء بين شخصيتين تجمعهما هذه الرابطة حرارة في المشاعر ونبرة صوت تحيل على الدفء الغامر، وهذا يعكس واقعا يعيشه المهاجرون العرب في كل أصقاع العالم وما **جواد** و **عدنان عبداللاوي** إلا نماذج فقط، وهما نموذج مصغر عن الشعوب المغاربية فيما بينها التي تشكل نسيجا واحدا يمكن أن نطلق عليه اسم الدولة المغاربية. فنظام

[17]-سعيدة بن بوزة، الهوية والاختلاف في الرواية النسوية في المغرب العربي، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، سورية، ط1، 2016، ص 29.

[18]- بومدين بلكبير، خرافة الرجل القوي، ص 33.

الدولة يفترض وجود شعب، بغض النظر عن شكله غير أنه يستلزم وجود علاقات ترابط بين هذا الشعب وخصائص تميزه عن بقية الأجناس [19]، إذن لعب البعد القومي دوره البارز في توجيه هوية جواد نحو مسارها الصحيح، فهو يسير به نحو العودة إلى الجزائر ليتخلص من حالة التيه التي عاشها في فرنسا " - حجزت لنا تذكرتين نحو قسنطينة في رحلة بعد الغد، يجب أن ترى عائلتك، أن تتعرف على أهلك، أن تعرف هوية تلك الجثة، من غير المعقول أن تظل هكذا كغصن مقطوع من شجرة" [20]

يجسد هذا المقطع من الرواية قوة الرابطة القومية بحيث تجعل من شاب مستقر في دولة أوروبية ينعم فيها برغد العيش، يحمل حقائبه ويعود إلى مسقط رأس والده وذلك كله بسبب تشابه في الألقاب مع تلك الجثة. لذا فإن القومية والانتماء يظهران على أنهما من أهم الأبعاد التي تتشكل وفقهما هوية الفرد.

البعد الديني وأزمة الهوية

باعتبار مفهوم الهوية يحمل أبعادا مختلفة ولا يقل أحدها أهمية عن الآخر ، لا يمكننا إغفال العامل الديني وأثره في مسألة البعد الهووي، فقد قامت حروب عديدة من أجل الانتصار للدين الذي يعتبر مكونا أساسيا لهوية الفرد والجماعة ويتجاوز ذلك إلى هوية أمة تحمل نفس الدين، ونفس الحمولة الثقافية . فتصاعد الاهتمام بالهوية بين المسلمين والغربيين يرجع أساسه في آليات التعامل فيما بينهما ما يجعله يتبلور على شكل صراعات [21]، هذه الصراعات برزت للعيان في صور فتحت أبواب الصدام، وأشعلت نيران الفتنة والحروب، وجعلت الدول تبني خططها المستقبلية بما يسمح لها بالهيمنة على العقول من خلال جعل الدول الأخرى تذوب فكريا في هوية الدول القوية، وقد مكنت هذه الخطط المرسومة من زرع الحقد بين أفراد الشعوب المتقابلة في الصراع، وهذا ما عملت الرواية العربية المعاصرة على الحفر فيه وإبرازه، نجده في رواية "خرافة الرجل القوي" في عديد المناسبات، منها عندما أتى **مارسيل** زميل **جواد** في العمل

[19]- ينظر، عبد العزيز ركح، ما بعد الدولة: الأمة عند يورغن هابرماس، منشورات الاختلاف، الجزائر، دار الأمان، الرباط، ط1، 2011، ص 42.

[20]- بومدين بلكبير، خرافة الرجل القوي، ص 43.

[21]-علي عبود المحمداوي، خطاب الهويات الحضارية من الصدام إلى التسامح: دراسة مقارنة بين المنجز الغربي والمنجز الإسلامي، مرجع سابق، ص 68.

وهو يحمل جريدة محلية تحمل خبر وجود جثة شاب جزائري ملقاة في الشارع، وبعد أن رماها أمامه " أردف قائلا :

- ماذا يأتينا من العرب غير العنف والإجرام!؟ فهؤلاء المهاجرون نمنحهم الحرية والحقوق التي يحلمون بها في بلدانهم البائسة، ثم يكافئوننا بالتفجيرات الإرهابية أو بالانحراف والإجرام !"[22].

بدا جليا عند **مارسيل** هنا ذلك الحقد الدفين الذي يكنه الغربي للشرقي، والذي لا نجد مبررا له سوى حب التفوق ونبذ كل ما هو مختلف في الفكر أو العرق أو الدين، فهذا الغربي تسيره إيديولوجية تدفعه إلى احتقار ومحاولة دوس **جواد** العربي الذي لا يشاركه في الدين ولا يتقاسم معه نفس المقومات، وبالتالي يمثل هوية مضادة وجب طمسها.

وعن نفس الحادثة التي أججت الصراع الديني بين **جواد** و**مارسيل**فقد أظهر **عدنان عبد اللاوي** مشاعرهتجاه الفرنسيين حينما كان يتسامر مع جواد في المقهى حيث قال: " بلاد الكفار يا أخي، لم يكفهم عهرهم، فزادوا غلبوا علينا حتى نساءنا، وبتنا لا نتحكم فيهن ! إنهم لا يحبوننا يمقتوننالا يحبون العرب، لا يحبونالإسلام"[23] .

أحالنا الروائي هنا إلى أن البعد الديني فعل فعلته في صورة فعل ورد فعل، ففي الأول أتى بتصرف الغربي وإخراجه لمكنوناته ضد كل ما يمت للعروبة والاسلام بصلة، وكان رد الفعل بتصريح العربي **عدنان عبد اللاوي**غير أن الباعث على هذين الفعلين المتقابلين ليس متطابقا، إذ أننا نجد اختلافا في الدوافع فالغربي يقوم بمثل هذهالأفعال من باب أنه يحس بالقوة ويرى نفسه حريا بالهيمنة وفرض نفسه، أما العربي فيحاول فقط إبراز كيانه، والتشبث بدينه الذي يسمح له بالوقوف ندا للند مع الغربي الكافر -في نظره- وعلى حد وصف الطرف الثاني في الصراع.

وهذا الصراع لا يحيد عن مضمون المفهوم العميق للدين لأن " الفكرة الدينية تقتضي الإيمان بأن الموجودات ليست كلها من نوع واحد، ولا مرتبة واحدة، بل بعضها أسمى من سائر الأنواع" [24] ، من هنا بدأت تتبلور فكرة السمو لدى بعض الأجناس وأن

---

[22]- بومدين بلكبير، خرافة الرجل القوي، مرجع سابق، ص26.

[23]- المرجع نفسه، ص 37-38.

[24]- محمد عبد الله دراز،الدين: بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، ط1، ص 53.

الله قد فضلها على بقية الشعوب الأخرى لاعتناقهم دينا معينا، أو لميلادهم في مكان معين، أو لكونهم يتكلمون لغة ما.

في مقابل هذا نجد أن هذا التجاذب بين الهويات خلق نوعا من الشعور بالدونية لدى الفرد العربي، كنتيجة لميل ميزان القوة خاصة في العصر الذي نشأ فيه الأدب المعاصر، فقد أصبح الفرد العربي يشكك في الدين ويتمرد عليه في مرات عدة، ويتاجر به ليملأ بهذا تلك الفجوة الحضارية الحاصلة نتيجة تكاتف مجموعة من الظروف، فبعد عودة **جواد** إلى الجزائر صادفته مجموعة من التصرفات التي يقوم بها الجزائريون في بلدهم، والتي لا تمت للإسلام بأية صلة لا من قريب ولا من بعيد، ما جعله يستنكر بعض التصرفات " أتذكر أستاذنا **صابير**، الذي ينتمي إلى حضارة الشرق العظيمة، وأنا أرى في هذا البلد إمعان الناس في الدوس على تلك القيم صباح مساء، بدون وخزة ضمير حتى."[25] يبدو هنا وكأنه يستهجن الوضع الذي آل إليه أهل بلده، لأنه يدرك جيدا أن الدين الذي ينتمي إليه لا يدعو إلى هكذا تصرفات بل يحث على نقيضها تماما، ولم يجد لهم المبرر الذي يسوغ لهم ما يفعلون، لكنه يعود بنا إلى ما مر به هذا الشعب الذي تجرع ويلات الاستعمار، ثم بعد حصوله على الاستقلال خرج جريحا ليسقط في منظومة اقتصادية واجتماعية متهالكة، وهي نتيجة حتمية لما مارسه المستعمر خلال الفترة الاستعمارية، ما جعل الشعب الجزائري يعيش فراغا رهيبا وتيها، يدفعه إلى الرجوع إلى هويته المسلوبة، ودينه الذي أريد له أن يندثر.

خاتمة: تمكنا بعد هذهالجولة في رواية " خرافة الرجل القوي " من تتبع مراحل تشكل الهوية، والصراعات التي ساهمت في بنائها من الوقوف على مجموعة من النقاط:

- يمكن الإقرار بأن هوية الإنسان قابلة للتشكل والتعديل، تماشيا معما يراد لها من قبل القوى المسيطرة والظروف التي يواجهها الفرد أو المجتمع.

-بات من الضروري قراءة الرواية العربية المعاصرة من منظور ثقافي كي نتمكن من القيام بحفريات متشعبة المراجع داخله، وهذا ما لمسناه في الرواية التي فككنا بعض أنساقها وفق منظور ثقافي.

-تشكلت هوية بطل الرواية من خلال بعدين بارزين هما البعد القومي الذي برز في أرض المهجر، والبعد الديني الذي رافقه أينما ذهب.

[25]-بومدين بلكبير، خرافة الرجل القوي، مرجع سابق، ص61.

- ساهم صراع الأنا والآخر بمختلف تمثيلاته في تشكل هوية البطل ومنه هوية شعب بأكمله.

-أهم سبب لاضطراب هوية العربي هو هيمنة السلطة بكل تجلياتها، والقمع الذي مورس ضده سواء في أرض الوطن أو في بلدان المهجر.